رياح كانون

رواية بقلم فاضل السباعي

* * *

ان تحليل العمل الادبي لا بد من ان يخضع للمقومات الاساسية التي ينطلق منها الدارس باعتبار ان عملية الحكم هي في جوهرها منطلق تقييم ، وكل تقييم هو صورة بناء جديد قوامه الصيغ الفكرية والحيوية والاجتماعية التي يؤمن بها الكاتب . ولكن هذا لا يعني ابدا ان النقد الادبي مجرد تعبير فردي عن موقف خاص لانسان ما ، باعتبار القيم الاخلاقية والفكرية والاجتماعية والجمالية تشكل لنفسها مسارا يؤثر بالافراد ويتاثر بهم . ومن هنا يمكن الانسجام مع اليوت في تحديده لمهمة الناقد ، ولكن مع شيء من التجاوز ، اذ ان مهمة الناقد – كما يقول اليوت – مزدوجة ، احد طرفيها (توضيح الفن وتصحيح الذوق) وطرفها الثاني اعادة العمل الادبي الى الحياة ، اما (ادوات الناقد التي يحقق بها هاتين الغايتين) فهي (المقارنة والتحليل) (١) .

وليسمح لي الاستاذ فاضل السباعي بالتنويه الى انني ساقتصر في مهمتي هذه على التحليل ما امكن ، وذلك لانني اريد تجسيد تلك الصورة التي يشكلها عن « رياح كانون » من خلال تلك النظرة الثاقبة التي طرحها لورنس داريل في رباعيته الاسكندرانية حين اكد في « جوستين » قائلا : « وفي مكان ما في قلب التجربة هناك نظام وانسجام نستطيع أن نلمسه اذا انتبهنا انتباها كافيا ، واحببنا حبا كافيا ، وصبرنا صبرا كافيا » (٢) ومن هنا يتضح لنا ان التجاوز « الشكل » في العمل الادبي لا يعني سوى التاكيد على « المضمون » وبالتالي فان لكل تجربة ادبية ابعادها واغوارها مهما كان حظها من الابداع في ميزان الناقد المنصف .

ولكن هنالك ملاحظات لا بد لي من ان اسوقها قبل المباشرة الفعلية في التحليل ، وهذه الملاحظات تتعلق بـ « رياح كانون » من حيث اداة التعبير ، مع ان هذا يرتبط بالشكل الى حد بعيد ، فالاستاذ فاضل السباعي يلوح لنا وبكل وضوح ، ذلك الروائي الذي يتمتع باسلوب فريد في نوعه ، بكراهته للاسلوب المتصلب ومقته للبلاغة ورفضه للصنعة الادبية ، لذا نجده يميل الى جانب النقل المباشر للاحداث ، ولكنه في الوقت نفسه يؤكد على الاكثار من وجهات النظر ، سواء عن طريق بطله رامي حسام الدين الذي يسرد لنا حياته الشخصية بضمير الغائب ، أو عن طريق الشخوص الاخرى التي تتجاذب آراء ووجهات نظر مختلفة . وهذه الملاحظات لا اعني بها تقييما سلبيا لـ « رياح كانون » ، وانما اعني تقرير واقع وتحديد مواصفات تتمتع بها الرواية ، مواصفات أميل اليها وأتعاطف معها بالقدر الذي تتيح للكاتب القدرة على ترجمة احاسيسه وافكاره وصياغة مواقفه ونظراته .

الا ان كل ذلك يقودنا الى طرح السؤال التالي : ما قيمة الرواية من حيث البناء الفكري والوعي الفني القادر على رصد المجتمع واشكالاته وتأزماته ؟

والاجابة على ذلك ، لا بد لنا أولا من اعطاء فكرة سريعة عن خط الاحداث في الرواية حيث نجد انفسنا امام الناقد الادبي رامي حسام الدين ، الذي يجمع بين مزاولة النقد الادبي وتعاطي مهنة المحاماة ، ويتعرف في ذلك على فتاة مثقفة تحمل مؤهل ب. ع. في الادب الانكليزي من الجامعة الاميركية في بيروت .. ففي احدى المحاضرات يتعرف رامي بلبنى آل الامير ، التي لا تلبث ان تبدي اعجابها البالغ بقدرته النقدية ، وتاخذ منه موعدا لتعرض عليه مخطوطة روايتها الاولى .. وهكذا تتالى اللقاءات ، ويشرع رامي بتشجيعها لانه آلى على نفسه ان يجعل منها « اديبة كبيرة » . وبالفعل يبدأ بتنقيح فصول روايتها ، ويتعاقد مع احدى المطابع لتكون الرواية في حيز الانجاز بعد بضعة عشر يوما ، ومن ثم تودعه هو واصدقاؤه اعضاء النادي الادبي لتسافر الى بيروت وتقوم بمهمة توزيع الرواية ... وتلاقي في بيروت نجاحا باهرا ، فتتحدث عنها الصحف والمجلات ، وتعود الى مدينتها مكللة بغار النصر ... ومن ثم تنتهي الرواية من حيث ابتدات ، اذ يعمد رامي الى تسجيل مذكراته عن خضم الاحداث التي مر بها ابان تعرفه على لبنى وحبه لها ، لتلد « رياح كانون » .

ومع ان الرواية تقترب الى حد بعيد من المسرح الذهني ، اذ ياخذ الحوار فيها مجالا واسعا ، فهي في الوقت نفسه تشير الى اكثر من مشكلة وتطرح اكثر من ازمة ، الا ان كل تلك المشاكل لا تطرح الا طرحا جانبيا ، فلا يكاد يمسها السباعي الا مسا خفيفا ، ولكنه مع ذلك يرتبط بالواقع ، اذ ان تسلسل الاحداث يكاد يؤكد لنا انه ينتزع شخوصه من اناس يعرفهم ، فيعمد دائما الى انتشال شخوصه ممن حوله كما فعل ارنست همنغواي في « الشمس تشرق ثانية » . ولكن لا بد لنا من التوضيح بان (هذا الخطف أو الانتزاع ليس اول تجربة فنية يمارسها فنان ، فان شرود اندرسون بدا اولا بالاشخاص الذين كانوا يقطنون معه في منزل واحد وسمح لفكره أن ينطلق بحرية) (٣) .

وبما انه مرتكز في تجربته الروائية على صخرة الواقع فان البطل عنده ياخذ مدلولا خاصا .. ينطلق من نقطة تحرك البطل ضمن عالم مؤطر ، بشكل لا يتاثر فيه بموروثات الماضي البائد ولا يتوقف عند عتبة المستقبل وما قد يخبىء فيه من عناصر ماسوية لا يكاد يتحسسها السباعي في روايته الا من طرف خفي لا يحمل في ثناياه جوهر المأساة ، وكل ما هنالك ان رامي حسام الدين يتحسس «دونيته» ازاء هذه الفتاة الارستقراطية الموشحة بعبير الجمال ، ثم لا يفتأ يعقد مقارنة ضمنية بين تركيبه الطبقي البائس وتركيبها الطبقي المرشح لارفع المناصب ، حتى ان والدها يغدو في النهاية وزيرا مرموقا . ولكن هذا التشبث بمعطيات الواقع لا يمنع السباعي من ان يمتح من رحيق الاسطورة ، ولا اعني هنا الاسطورة التاريخية بل قدرة أبطاله على الحدس حين يبرز عنصر « الكهانة » لدى بهاء الدين عاشور في أكثر من موقف ، ولكن كهانته تلك لا تكسبه سوى احتقار رامي ولبنى معا .

واذا ما اتفقنا مع سارتر على ان « وظيفة الكاتب أن يسمي الهر هرا ، واذا كانت الكلمات مريضة ، فمن واجبنا نحن ان نشفيها » (٤) ، اقول اذا ما حددنا وظيفة الكاتب بترجمة قضايا الواقع وتجسيد أحداثها لتحليلها ووضع الحلول اللازمة لها ، فاننا نجد فاضل السباعي هو الآخر لا يفتأ يؤكد على هذه المسلمة ، ولكنه يكتفي بمسها دون الغور في اعماقها ، ولعل محاولته في الغوص عن طريق الحوار الذهني المفتوح الذي كان يدور في النادي الادبي أو في منزل رامي بين لفيف من الشباب المثقف لم يمكن الكاتب من استحلاب جوهر الفكرة التي كان يعدو وراءها ، انه نقل لنا صورة حوار فقط .. حوار مسبوك وفق صيغ فكرية وقوالب نظرية ارادها المؤلف بالضبط كما اراد ان يقول لنا : « لم اغادر سريري ، لا عن مرض ،

(١) انظر « النقد الادبي » لستانلي هايمن .
(٢) « جوستين » ، ص ٢٥٥ ، لورانس داريل .
(٣) « أرنست همنغواي » ، ص ١٠٩ ، كارلوس بيكر .
(٤) « الادب الملتزم » ، ص ٢٩٠ ، جان بول سارتر .

ولكن من خليط من المشاعر ينتابني ، غريب حقا » (٥)ـ.

ولنعد الى المشاكل التي طرحها في روايته او مسها مسا خفيفا . ولعل كثرتها حالت دون تحليلها أو تجسيدها . فهناك مشكلة الزواج ، وازمة الجنس ، وأزمة الجيل ، والتفاوت الطبقي ، والحب ، والسياسة ، والاسرة وتركيبها ، والآباء البنون ، والابداع الفني ، والادب والادباء ، ومشكلة الوقت بالنسبة للكاتب ، ومأساة الادب المراهق ... الى آخر ذلك الخط الطويل وبشكل نلفي فيه انفسنا حيال لوحات ضئيلة متلاحقة . الا ان هذا لا يعني أبدا انه لم يقل شيئا ، فنراه يجسد لنا مأساة الانسان الفنان ، مأساة حملة القلم ، قائلا على لسان صديقه الروائي فوزي المجاهد : « أنا الكاتب الذي يشقى في هذا الوطن البعيد ، أي مكافأة تنتظرني ؟ مبلغ زهيد يؤديه لي ناشري على مضض ، ثم يغوص عملي ، واغوص في بحر النسيان » (٦) .

ولكن أزمة الادب لا تقف عند هذا الحد ، بل انها تؤدي بالادب ورواده الى الهاوية ، فهذا « حازم ضيا » يتوقف عن الكتابة ليستغل وقته بالتدريس ويدخر مبلغا يشتري به « قنا » لاطفاله .. انه يدرس الادب في سبيل ايجاد السكن لاسرته .

والمأساة نفسها تتكرر ابدا . الا اننا لا نكاد نقف على لوحة اكثر روعة ونبضا بالحياة واحساسا بالالم من تلك الفقرة التي ترد على لسان فوزي المجاهد حين يقول في معرض حوار مع أصدقائه :

« بسمة ، بنت الاعوام الثلاثة ، طلبت الي أن أشتري لها سوارا من ذهب ، لان زميلتها في « روضة الاطفال » اصبحت ذات سوار قدمته لها أمها في عيد ميلادها . وايمان ، تسالني لماذا لا اشتري سيارة خاصة كسيارة صاحبة البناية ؟ قلت لها : « ما عندي ثمنها يا حبيبتي ! » ، قالت باستغراب : « ولكن أنت ، يا بابا ، أحسن من كل الناس .. أنت تؤلف كتبا ! » ، قلت : « لهذا السبب عينه لا أملك مالا اضافيا » ! » (٧) ..

وكان الاستاذ فاضل السباعي يريد أن يؤكد لنا بان الاديب غدا بمثابة لعنة على الاديب ، ما دام عاجزا عن اقتناء بيت له ، وما دام عاجزا عن امتاع أطفاله واطعامهم ، وما دام عاجزا عن تحقيق العيش الكريم .. كل ذلك لانه أديب .. لانه يناضل في سبيل مجتمعه ، ولانه يغني لشعبه ، ولانه محكوم بان يبقى مدانا ما دام أديبا ! لذا ليس أمامه ثمة مجال سوى القناعة بجوعه وفاقته ، أو العزوف عن الادب لخوض غمار الحياة ومعتركها اللاهف بحثا عن لقمة العيش .

واذا كان حازم ضيا قد قرر الاستسلام للواقع ، فان فوزي المجاهد ـ الذي اعتقد انه صورة عن فاضل السباعي ـ وكذلك رامي حسام الدين قد اصرا على متابعة المسير .. فهذا فوزي يكب على انجاز رواية طويلة .. وذاك رامي يقرر في آخر الرواية ، وبعد ضياع طويل في دوامات الارق وصراع مستمر بين الحب والفكر والواقع ، أن يتخذ موقفه النهائي من فتاتنا المفناج التي خلق منها اديبة من صنع قلمه ، فيحزم امره على الفراق : « لتمض في دربها وحدها . لن أهيل على صيتها ، الذي بلغته بفضلي ، ترابا . انني أقوى . لتبحث لها عن مزيف لرسالة الادب غيري ! » و « سأكتب الليلة فصلا . وغدا الجمعة فصلين .. سأجعل الرواية من ثلاثين فصلا أو اربعين او خمسين .. ان في نفسي رياحا ما تسكن ابدا » (٨) .

واذا كان لا بد من التساؤل ، أخيرا ، عما اذا كانت الرواية قد حققت اغراضها الفنية والفكرية ، فلا بد من الاجابة على ذلك بنعم ولا معا . ذلك ان فاضل السباعي حاول جهده اداء المهمات التي كان يرمي الى تحقيقها منذ الصفحات الاولى ، فنجح مرة واخفق اخرى . ولعل ملامح النجاح تبدو اكثر ما تبدو في القدرة الفائقة التي يتمتع بها في السرد الروائي ، وفي عرض وجهات النظر المختلفة، وقيادة الحوار من خلال المواقف المتضاربة . الا انه مع ذلك ترك ثغرة كبيرة في بنائه الروائي ، فالقارىء يخرج من الصفحات التي تنوف عن ال ٤٠٠ وهو يسائل نفسه : ترى ماذا يريد المؤلف ؟ فلقد عرض علينا مواقف وطرح آراء وأبرز نقاطا غاية في الاهمية ، الا انه أخفق في تحقيق عنصر التركيز على شيء ما ..على موقف ما .. وانما اكتفى باللمحات الخاطفة واللمسات الخفيفة . ومع ذلك لا يسعنا الا التأكيد بأن فاضل السباعي قد وضع لبنة جديدة في الرواية العربية السورية ذات الطابع المحلي الخالي من تعقيدات ودوامات التركيب الفكري للرواية المعاصرة في العالم .

حلب — **محمد الراشد**

(٥) « رياح كانون » ، ص ٣٦٢ ، وهي طبع بيروت ، ونشر دار القصة العربية بحلب .

(٦) « رياح كانون » ، ص ٢٣٧ .

(٧) « رياح كانون » ، ص ٢٣٢ .

(٨) « رياح كانون » ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

بيـان

جاءنا البيان التالي :

صدر مؤخرا ، سهوا وعن غير قصد ، عن دار احياء التراث العربي ، طبعة خاصة من :

ديوان الاخطل

تحقيق الاب انطوان صالحاني

وهذا الكتاب ملك دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية) بيروت . وقد تم الاتفاق بين دار احياء التراث العربي ودار المشرق بيروت ، على اعادة جميع النسخ المطبوعة الى صاحبة الحق دار المشرق .

الكهـف

رواية للاستاذ محمد جلال

***

اختار الاستاذ محمد جلال لروايته الجديدة « الكهف » فترة زمنية حافلة بالاحداث مليئة بالتناقضات ، تصطخب بشتى الاتجاهات السياسية والفكرية ، هي فترة خواتيم الاربعينيات من هذا القرن ، هذه الفترة العاصفة من تاريخ مصر المعاصر .

والواقع انها تعد من هذه الناحية وثيقة تاريخية هامة ، تؤرخ لهذه المرحلة ، وخاصة ، والكاتب قد عاصر الاحداث ، واكتوى بنارها ، بل وشارك أحيانا في صنعها ، مما يجعلنا نرى انها تجربة ذاتية للمؤلف ، فلا غرو ان خرجت الرواية نابضة بالصدق ، مفعمة بالحيوية ، فالرواية تعرض لحياة طلبة الجامعة ، وكفاحهم السياسي في هذه المرحلة ، بكل ما فيها من حماس الشباب وثوريته ، وتطلعه نحو حياة افضل ، فاذا كانت السياسة في هذا الوقت خليطا من التناقضات ، بحيث تضيع الرؤية الصحيحة وسط تزاحم الاحداث واصطحابها ، فقد كانت الصورة التي رسمها المؤلف منطبقة تماما على الواقع السياسي لهذه الايام .

والرواية في حقيقة الامر ، عبارة عن مجموعة من القصص تصور كل واحدة منها حياة احد ابطال هذه الرواية ، مع وجود هذا الخط الدقيق الذي يربط بين هذه المجموعة من القصص ، ويجعل منها في النهاية هذه الرواية التي تحت ايدينا الان .

فنحن نطالع فيها مثلا قصة احسان ، الصحفي المأجور ، عميل القصر ، بعلاقاته النفعية ، بأشجان من جهة ، والفلبان من جهة اخرى ، وبالخشن في النهاية ، واستعداده التام لبيع نفسه للشيطان في سبيل الحصول على الترقيات ، وصنع حياة مترفة على حساب بيع الشباب الوطني للقصر ، وما يسود هذه الحياة من انتهازية تمكنه من بلوغ مآربه عن طريق اتصالاته الكثيرة المشبوهة ، هذا النموذج عاش في هذه الفترة ، وكانت له قصته في هذه الرواية .

وأشجان : الفتاة القروية التي هبطت القاهرة لتعمل خادمة ، والتي سرعان ما جرفتها حياة المدينة بعد اتصالها باحسان الذي مكنها من الوصول الى الجامعة ليجعل منها عميلة له تنقل اليه اسرار الطلبة ، بينما هو يمثل عليها دور العاشق الولهان ، والتي تفيق في النهاية وتتنبه للفخ الذي نصبه لها احسان ، فتثور عليه ، وتتجه بعواطفها نحو صابر زعيم الطلبة وأحد الوجوه المشرقة وسط هذا الظلام ، وتقرر العودة الى القرية حيث الهواء النقي الذي حرمت منه وسط زحام المدينة ، وحياتها البراقة ، والخانقة في ذات الوقت .

كما تطالعنا أيضا قصة (الخشن) هذا الدعي السياسي ، الذي استطاع أن يلعب بانتهازية دور المكافح الثوري ، وهو أبعد ما يكون عن ذلك ، والذي سرعان ما يغير جلده ، ويعود الى حقيقته كأحد العملاء المأجورين ، فيرتمي تحت أقدام احسان ، ليمكنه من الوصول الى قلب أشجان .

ومن القصص التي أبدع الاستاذ جلال ـ بحق ـ رسمها القصة (الفلبان) ، هذا المثقف البائس الذي لم تعترف هذه الحياةالاجتماعية الزائفة بعبقريته ، فقذفت به برغم كل ثقافته ووفرة اطلاعه على أحد المساجد لتجعل منه خادما ومؤذنا وخطيبا نظير قروش معدودات ينفق منها على زوجه واطفاله ، والذي يضطر تحت ضغط الحاجة الى بيع قلمه لاحسان الذي ينقده بضع جنيهات في مقابل ما يكتبه له من مقالات بليغة ، والذي تمكن بفضل توصية احسان ان يعمل موظفا بوزارة الاوقاف ، وينتقل الى زمرة ((الافندية)) .

ومن الشخصيات التي وفق الكاتب كذلك في تصويرها شخصية ((دعبس)) المطرب القروي الذي غادر قريته ليجرب حظه في القاهرة ، والذي تمكنه أخته أشجان عن طريق صديقها احسان من الشهرة وبلوغ ميكروفون الاذاعة ، والذي سرعان ما يترك فنه الريفي الاصيل ، فيغني الاغنيات الراقصة والخفيفة ، فتتهافت عليه سيدات الطبقة الراقية ، ويتبارين فيما بينهن على الفوز به كعشيق .

ويرسم الاستاذ المؤلف عدة صور صادقة للشباب الثوري في هذه المرحلة ، كشخصية صابر ، الشاب الوطني المكافح ، الذي يتزعم الطلبة عن جدارة ، والذي يضمر حبا دفينا لاشجان ، وكذلك الشباب منير عبد اللطيف ، هذا الصحفي الشريف الذي يشرع في تأليف كتاب أسود لفضح مساوىء هذا العهد البائد ، والذي يقبض عليه بعد أن أبلغ عنه احسان بعد أن عرف عن طريق أشجان فكرة اصداره للكتاب الاسود ، والذي يرفض الهرب بعد أن اتيحت له فرصته ، مفضلا البقاء في السجن ، متحديا زبانية هذا العهد ، كما يحسن المؤلف تصوير زوجة هذا البطل التي تضحي بحياتها الارستقراطية لتعيش حياة بسيطة الى جانب هذا الكاتب الحر ، وهناك أيضا من الشخصيات الثورية الشاب فاضل صانع المتفجرات .

وهكذا استطاع الكاتب من خلال هذه الشخصيات المرسومة بدقة ، أن يعرض لنا شريحة كاملة من المجتمع المصري فيما قبل الثورة ، ممثلة في هذه المجموعة من شباب الجامعة ، ومن يتصل بهم من افراد هذا المجتمع .

والواقع ان أول ما يلفت النظر في هذه الرواية ، بعد توفيق الكاتب في اختيار موضوعها ، والفترة الزمنية التي تعالجها ، هو دقة الكاتب في رسم الشخصيات ، فأبطال الرواية مرسومون بمهارة ، بحيث استطاع الكاتب ـ بحق ـ أن يجعل منهم آدميين أحياء ، يعيشون ويتنفسون ، ونتبين ملامحهم من خلال صفحات هذا الكتاب . وربما كان توفيق الكاتب في هذا الصدد يرجع الى انه قد التقط شخصياته من الواقع ، فالشخصيات ـ كما يبدو ـ شخصيات حقيقية عاشت في المجتمع في سنوات ما قبل الثورة ، واتصل بها المؤلف وعرف دقائق مشاعرها وأحاسيسها ، فأحسن تصويرها .

خذ مثلا شخصية ((احسان)) : أن الكاتب يرسم صورتها بمهارة، من خلال اتصالاته المشبوهة ، وعلاقاته المتشابكة ، انه يستطيع بعبارة بسيطة تصدر عن لسانه أن يجسمه لنا بشرا حيا ، بكل ما فيه من وصولية وخسة ((لا مانع من بعض التنازلات في سبيل الوصول الى هدف أكبر)) ـ ((الدنيا مصالح يا أشجان)) .. ان أشجان تتصور انه يحبها ، ولكن كل ما يهمه منها في الواقع هو المعلومات التي تمده بها ، انها تستفز رجولته بحديثها المشوب بالاعجاب عن صابر ، وتتمنى ((لو أنه صفعها على وجهها)) ، ((ولكنها وجدته يستقبل الامر كأنه لا يعنيه ، ويركز كل اهتمامه على استقاء المعلومات)) . ان احسان لا يعرف الحب ، ولكنه في الوقت نفسه يحسن تمثيله ، لقد تلقى درسه الاول في كيفية ممارسة الحب على يد أبيه ، الذي يبدو أن احسان كان ابنا شرعيا له بحق ، فقد قال له بعد أن رآه يبكي بسبب حبه لبنت الجيران ((أعطف ولا تحب ، بهذا تقلب ميزان القوى ويصبح في صالحك ، لقد تعلم منذ وعى الحياة أن الحب يفسد العمل ، وانه اذا أراد أن ينجح في عمله فان عليه ان ينحى الحب جانبا ، انه في الحقيقة لا يعرف الحب ، لانه ـ كما تقول أشجان ـ ((يحب مستقبله ولا شي آخر)) . و ((احسان)) يستطيع ان يقول اشياء لا يرضى بها في أعماقه ، ما دامت ستبلغه هدفا من أهدافه ، فلا مانع عنده من ان يصافح (الفلبان) ما دام سيشتري قلمه ، ولكن سرعان ما يسكب العطر على يديه ، ويغسلهما في تأفف وهو يقول ((هانت الايام حتى يصافح احسان خادما)) ، انه باختصار لا يأنف من الاقدام على أي شيء مهما كان يرفضه في أعماقه ، ما دام سيصل من ورائه الى تحقيق مكسب ما . و ((احسان)) الذي يتنكر لماضيه ، ويهرب منه بالسكنى في (جاردن ستي) يقوم بدور الاستاذ في هذا المضمار للاخرين ، فهو كما صنع بأشجان يصنع بأخيها (دعبس) ، فهو يلقنه درسه الاول قائلا ((اذا اردت ان تنجح فاعطف القرية ظهرك)) ـ ((لا بد ان تقطع كل صلاتك بماضيك ـ انس الفلاحين واغانيهم ، ومواويلهم والزراعية والمصطبة ـ واخلع هذا الجلباب وتخلص من اسمك)) ، ((من يتسمى بهذا الاسم لا يمكن أن يسمح له بالدخول من بوابة القصر)) ، وهو لا يصنع كل هذا التغيير في شخصية ((دعبس)) من أجل صالحه ، وانما من أجل صالحه هو ، انه لا يعدو في نظره أن يكون ((سلاحا من أصلح الاسلحة التي يقتحم بها حصون الاغنياء التي ظلت مستعصية عليه زمنا طويلا)) .

اما الشخصية النسائية الاولى في الرواية فهي (اشيجان) .

والمؤلف لا يقل توفيقا في رسم ملامحها عن توفيقه في رسم شخصية (احسان) ، ونحن نستطيع أن نتخيل شكلها الخارجي من خلال رسم الكاتب لها بوجهها المستدير ، وشفتيها المكتنزتين ، أما التصوير الداخلي للشخصية ، وهذا هو الاهم فهي فتاة جريئة ، لا تتورع عن فعل شيء تؤكد به حريتها ، وهي تقتحم الحرم الجامعي ببنطلون أسود ضيق وبلوزة سوداء ، ومنظار أسود كذلك . بل وتخرج علبة سجائرها وتشعل سيجارة وتجذب منها نفسا ، وتنفث الدخان في وجوه الطلبة الذين حاصروها ، وكأنها بذلك ترد على تصرفهم الصبياني هذا ، متحدية جمودهم وتحجرهم ، كما تتصور . غير أنها ، وقد صادف طموحها الى تأكيد ذاتها بهذا المظهر ، هذا المسلك المعيب من الطلبة ، ومسايرة المسئولين في الجامعة في مسلكهم ذاك ، وامرهم لها بمغادرة الجامعة في الحال ، سرعان ما تعود الى طبيعتها الانثوية الضعيفة فتنهار ، وتسكب الدمع ، وهي تغادر الجامعة بعد أن قذفت بها تقاليدها خارج الابواب . وهي ـ كتلميذة لاحسان ـ تسلك أسلوبه الانتهازي المخادع لتحقيق أهدافها ، وخاصة في الطور الاول من حياتها الذي كانت فيه واقعة كلية تحت تأثير احسان ، فهي لكي تتصل بصابر زعيم شباب الجامعة ، لتكون عين احسان لدى الطلبة ، تلعب دور الفتاة الوطنية ، ولذلك فهي ، وحتى تخاطبه باللغة التي يفهمها ، تتسلق أكتاف بعض الشباب وتهتف ، وتشعل الحماس في حناجرهم بالهتاف المدوي . ان احسان ـ في الواقع ـ قد ترك بصماته واضحة عليها ، فقد (أصبحت لا ترى الدنيا الا من خلاله) ، لقد استطاع ان يجعل منها فتاة عصرية تقطع صلتها بكل ما فيها حتى اسمها ، وتستخدم المساحيق بكثرة ، وترتدي البنطلون الضيق ، وتدخن السجائر ، وتحتسي الخمر ، وتصادق الرجال ، وتعتنق الافكار الغريبة . انها ـ باختصار ـ لم تعد الفتاة الريفية الطيبة التي هبطت القاهرة ذات يوم بكل نقاوة الريف ، فالكاتب يصورها ذات طبيعة جنسية صارخة، تتهافت على احسان تهافتا عنيفا ، بالرغم من صده لها ، وهي حينما كانت ترقد في حجرة صابر بعد ان نقلها اليها وقد اصيبت في المظاهرة تتعمد ، وقد أحست بدخول صابر ، « أن تكون رقدتها شديدة الاغراء وأن تكشف عن ساقيها الجميلتين » . غير أن الطبيعة الريفية الصادقة ـ والتي ستنتصر في النهاية ـ كثيرا ما كانت تقاوم هذا الركام من الزيف ، فتحاول أن تطفو على السطح ، فهي بعد أن اشتركت « في المسيرة بقصد كسب ثقة صابر ، والحصول على المعلومات التي يريدها احسان » تشعر بأن على كتفيها حملا ثقيلا من الاحزان ، كما أن الضيق كان يضغط على صدرها ، وقد اعتصرها شعور الاحتقار لنفسها بعد اقدامها على هذا العمل الوضيع . واذا كانت أشجان تسلك مثل هذه المسالك المعيبة التي تتنافى مع الطبيعية الريفية النقية ، فهي تحاول تبرير كل هذا حينما تقول لاخيها مشيرة الى تغيير اسميهما من خضرة ودعيبس الى اشجان وشريف «هذه هي المدينة ، خضر ودعيبس في كفر السرايا ، أما هنا في القاهرة ، فلا بد من شيء آخر ، أشجان وشريف حتى نجد مكانا لنا ، انهم لا يفسحون الطريق لمن يحمل مثل أسماء دعبس وخضرة » ومما يؤيد هذا التبرير ، ويبرهن على سلامة الجوهر ، ان أشجان وقد وجدها أخوها دعبس حين قدم اليها من القرية ، لاول مرة ، ترتدي الفستان الضيق ، تشعر شعور المرأة التي يباغتها رجل وهي عارية ، حتى انها امسكت هذا الفستان الضيق الذي كانت تلبسه ، وكأنها تخشى أن يسقط كلية عن جسدها . والواقع أن يقظة الطبيعة الريفية تبلغ أشدها حين تبرق عيناها ، وهي تصبح في وجه احسان ، فاضحة الدور الذي دفعها الى القيام به ، دور الجاسوسة، الذي أدى الى اعتقال شاب وطني ، كمنير عبد اللطيف ، الكاتب الحر ، وهي تقرر الخروج ـ نهائيا ـ من أسر هذا الاستاذ الذي غير شخصيتها كما غير اسمها ، وحاول أن يطمس بذرة الخير الكامنة في أعماقها ، فتصرخ معلنة يقظة الطبيعة الريفية بشكل حاسم « سأهرب من هذه الغابة ، سأعود الى قريتي بعد أن أنتهي من دراستي ، لقد ضقت بزيفكم وخداعكم ونفاقكم ، لن أبقى لحظة هنا بعد أن أفرغ من دراستي ، سأعود الى هناك لاتنفس الهواء النقي ، منذ خرجت من قريتي وأنا لم أستنشق نسمة هواء نظيفة » . وهي تعلن قطع علاقتها به ، وبحياته نهائيا حينما تجري نحو حجرتها وتدخلها ، ثم تغلق الباب خلفها بالمفتاح ، انها نهاية رمزية رائعة . ويرمز الكاتب الى خروج أشجان من هذه الحياة الزائفة بكليتها ، حين يصورها وقد قررت مغادرة هذا الكهف الذي وضعها فيه احسان ، فتتناول احدى الحقائب القديمة وتنفض عنها التراب ، وتخرج منها الملابس التي تركت بها القرية ، ثم تخلع البنطلون الضيق والبلوزة السوداء والملابس الداخلية الشفافة ، وتلقي بها في ازدراء ، ثم ترتدي بصعوبة بالغة الملابس الداخلية الخشنة التي ضاقت عليها والجلباب المشجر القصير، انها بذلك تعلن الخروج نهائيا من حياة المدينة ، حياة الزيف والتمويه ، والارتداد ثانية الى الحياة النقية ، حياة الريف ، حياة الطهر والصفاء .

أما « صابر عبد القوي » زعيم شباب الجامعة ، فقد وصفه الكاتب بأنه ذو قامة هرقلية ، ووجه صحراوي أسمر ، هذا عن المظهر الخارجي ، أما من الداخل ، فقد صوره الكاتب لنا على جانب كبير من الخلق ، فهو يحني رأسه لكيلا يرى ساقي أشجان العاريتين ، حينما دخل عليها وهي متناومة في حجرته بعد أن نقلها اليها حين سقطت في المظاهرة خوفا من أن تقع في أيدي رجال البوليس . وهو يتمتع بقدرة كبيرة على الاتزان وضبط النفس وكتمان ما يدور في أعماقه فهو حينما تظهر نتيجة الانتخابات ويفوز مرشحاه أشجان ومنير يبذل جهدا فوق طاقته حتى يكتم ما يدور في أعماقه من انفعالات ، كما اننا نجده يكتم عاطفته نحو أشجان ، فلا يصرح لها بحبه ، بل انه ليخشى أن يتصور زملاء المعركة أن ثمة علاقة بينهما . وكثيرا ما كان يفكر في أن يجري اليها ويلقي بصدره المضطرم بأحاسيس متباينة على صدرها ويعترف لها بحبه ، وليذهب الخشن وأمثاله الى الشيطان ولكن الفكرة سرعان ما تذوب فجأة ، كما ظهرت ، فالكاتب يصوره لنا انسانا حقيقيا من لحم ودم له لحظات ضعفه ، ومن ذلك أن الخشن عندما يتمكن من هزيمته على مرأى من زملاء الجهاد الذين يضعونه في منزلة القائد ، ويجعله يقرر قطع علاقته بأشجان ، محرجا اياه أمامهم ، حتى لقد عجز عن الدفاع عن نفسه وعنها ، نراه وقد تصلبت عضلات وجهه وزم شفتيه ، والدموع تكاد تفر من عينيه . والمؤلف كما يصوره في لحظات ضعفه ، يصوره في لحظات قوته ، فهو شهم شجاع يعرض حياته للخطر ويقامر بمستقبله ويدخل السجن في ظلام الليل ، ويعرض على منير فكرة الهرب ، كما أنه « قوي الشكيمة، نظراته آمرة ، وحججه مقنعة ، وكلمته فاصلة » وهو لا يفهم الحياة الا على انها نضال وكفاح ومبادىء ، ولهذا فهو لا يأبه في نهاية القصة بأشجان التي تعرض عليه أن يبتعدا عن المدينة ، ويذهبا الى القرية ليعيشا معا هناك « حيث الحياة والناس بلا أصباغ أو أقنعة » فيتركها واقفة ، ولا يرد على كلامها ، فتسأله : ماذا تصنع ؟ فيجيبها في صوت جهوري « أكتب .. أكتب ما كان يود منير أن يكتبه للناس » وعندما تذكر له أنهم سيفعلون به ما فعلوا بمنير ، يخيبها في اصرار « شيء لا يهم ، المهم أن يوجد من يقول الكلمة » وهكذا استطاع الاستاذ جلال أن يصور لنا صابر عبد القوي بشرا حقيقيا من لحم ودم ، له لحظات ضعفه ، الى جانب ما يتمتع به من قوة الشخصية وسمو الخلق .

أما الشخصية التي لا تنسى ـ بحق ـ فهي شخصية (الغلبان) كما رسمها الاستاذ جلال ، هذا المثقف البائس الذي تضطره الظروف ـ برغم كل علمه وذكائه ـ الى بيع قلمه لاحسان .

وفي الحقيقة ، فان كل شخصية من هذه الشخصيات تستحق دراسة خاصة ، لقد استطاع الاستاذ جلال أن ينتقي مجموعة من النماذج الحية تمثل جيل هذا العهد أصدق تمثيل بكل ما فيه من

وطنية ونقاوة هي الجوهر ، وبكل ما فيه من خسة وخيانة هي الامر العارض . وكم كان الاستاذ المؤلف موفقا حين جعل النماذج الطيبة في روايته أكثر عددا من النماذج السيئة ، فالطيبة والوطنية هي الاصل في شعبنا ، أما الخسة والخيانة فهي أشياء عارضة اذا أحسنا الظن بهذا الشعب الكريم . وشخصيات الاستاذ جلال بشر من لحم ودم لهم لحظات منفعهم وشرهم ، فهم ليسوا أقوياء دائما ، ولا أخيارا في كل الاحايين ، وهذه هي الطبيعة البشرية الحقة ، بكل ما تنطوي عليه من غرائب ومفارقات .

والاستاذ جلال بالاضافة الى توفيقه في اختيار الشخصيات وحسن تصويرها بدرية لا أستطيع أن أقول الا انها جيدة ، قد بلغ درجة الامتياز في بعض لقطات هذا العمل . والواقع أنه لو حافظ على هذا المستوى لاستطاع أن يقدم لنا عملا ممتازا بسهولة الى المعالم البارزة في أدبنا القصصي . خذ مثلا هذه اللقطة .. حينما يسأل احسان أشجان عن السبب الذي دعاها الى الذهاب الى الجامعة بالبنطلون ترد عليه ببساطة « كنت ذاهبة لشراء بعض أدوات الزينة ، وفكرت بعد أن خرجت من البيت في الذهاب الى الكلية لاحضر محاضرة الشريعة الاسلامية » .. ان اختيار مادة (الشريعة الاسلامية) بالذات هنا تعبير عن التناقض بين شخصية المرء والعلم الذي يتلقاه .. ان العلم هنا ليس الا شيئا سطحيا لم يمس جوهر الانسان ، أو بمعنى آخر تعبير عن انفصال العلم عن المجتمع ، فالعلم في ناحية والناس في ناحية أخرى . هناك أيضا اللقطة التي أعطى فيها احسان ورقة من فئة الخمسة جنيهات لابن الغلبان الصغير .. ان الغلبان حينما ينظر الى ابنه ليرى أين وضع الورقة ، يجد الطفل قد تركها على الارض وانطلق هاربا الى خارج الشقة .. انه تعبير عن فرار الجيل الجديد ونجاته من مثل هذا الاسلوب الوضيع في التعامل ، الذي يسلكه احسان مع الغلبان . ومما استلفت نظري في هذا العمل أيضا هذا الحوار الذكي الذي دار بين الخشن واحسان حين تقابلا في النهاية .. ان الاستاذ جلال يديره بين رجلين ضالعين في الخيانة بمهارة فائقة ، ان العبارات القصيرة الحادة كانت أشبه بطلقات الرصاص السريعة المتبادلة بين عدوين ، لا بين رجلين يجلسان أمام بعضهما فاتحين صفحة من الصداقة يعلم الله انها لغير وجهه . ومن اللفتات البارعة أيضا في هذه الرواية الصورة التي رسمها المؤلف لفاضل عقب نجاح القنابل التي صنعها بنفسه ، حيث ألقاها الطلبة على جنود الشرطة فمزقتهم اشلاء وصدت جموعهم عن الطلبة المعتصمين بكلية الطب .. ان الكاتب يصور كيف فر فاضل من ارض المذبحة التي صنعتها قنابله وكيف ارتمى على كرسي في مقهى بحي المنيرة ، حيث حضر اليه المعلم بنفسه لتحيته حاملا كوب الشاي ، وقد تبين فيه أحد هؤلاء الطلبة الابطال الذين يقاومون رجال العهد البائد .

وبعد فان لي عدة مآخذ على هذا العمل كنت أود أن يتخلص منها حتى يبلغ الكمال المنشود ، من هذه المآخذ ما يتعلق باللغة ، وصحة استعمالها ، فهناك بعض الاخطاء اللغوية والنحوية أذكر منها على سبيل المثال قوله « وأسرع الى زجاجة عطر وسكب منها على يديه وغسلها » والصحيح أن يقول : وغسلهما . ومن ذلك أيضا قوله : « يبدو أن الجهد الذي بذلتيه في الانتخابات قد أثر على أعصابك » والصحيح : بذلته ، بدون ياء . ومن ذلك قوله « الملابس الشفافة الداخلية » والانسب أن يقول : « الملابس الداخلية الشفافة » .

ومن هذه المآخذ ما يتعلق بالموضوع ، فالتطور الاجتماعي لاشجان وانتقالها من مجرد خادمة ريفية اسمها خضرة الى فتاة جامعية عصرية تذهب الى الجامعة وهي ترتدي البنطلون وتنجح في انتخابات الطلبة وتمارس هذه الحياة المتحررة ، أقول ان مثل هذا التطور الغريب لا يمكن تصوره بسهولة .

ومن الامور الغريبة في هذا العمل الفني ، حقا ، استدعاء العمدة والمأمور لدعبس وتعنيفهما له بسبب غنائه الذي « يعطل الفلاحين عن الذهاب الى حقولهم » وكيف أن الخاصة الملكية اشتكت من ذلك ، الامر الذي جعل العمدة يأمره بتحطيم الناي الذي يشيع الفتنة في البلاد ويهدد محصول الخاصة بالنقص .

ونقف قليلا عند الموال الذي غناه دعبس في شقة أخته ، انه يغني زجلا للمرحوم بيرم التونسي .. ان هذا الزجل وان كان شائعا بين أوساط المثقفين الا أنني لا أتصور أن يكون شائعا بنفس الدرجة بين الشعب لدرجة أن مغنيا ريفيا كدعبس يغنيه – كموال – لمجموعة طلبت منه الغناء .

وهناك من الامور ما يبدو تناقضا في البناء الفني للشخصية ، ومن ذلك مسألة الشجاعة التي حطت فجأة على فاضل ، حيث عرض على صابر أن يأخذه معه لزيارة منير في السجن مع كل ما يحيط ذلك من خطر وهو الذي صرخ من لحظات منفعلا حين سمع من الخشن أن القصر يعلم بأن أحدهم يصنع القنابل « كيف عرفوا – أنا لم أقل لاحد – لا بد انهم قادمون للقبض علي » وتصلبت عضلات وجهه في فزع .

ومن المآخذ الفنية أسلوب السرد المباشر الذي اتبعه الاستاذ جلال وهو يصور انفعالات صابر بعد أن أجبره الرفاق على قطع علاقته بأشجان ، لقد كان في وسع المؤلف أن يحول هذا الجزء الى (مونولوج داخلي) رائع ولكنه لم يفعل ، وبوجه عام كان في ميسور الاستاذ جلال أن يختار لروايته هذه لغة أبعد ما تكون عن هذا السرد المباشر الذي نحسه في معظم جوانب عمله هذا لغة تتسم بالشفافية والشاعرية من جهة ، والقدرة على الايحاء والتلميح من جهة أخرى .

ومن الاشياء التي كنت أتمنى أن ينزه الاستاذ جلال قلمه عنها استعمال « الجنس » لغير ضرورة فنية . وبعد ، فان المؤلف الذي صدر له قبل هذه الرواية ثلاثة أعمال قصصية أخرى هي : الرصيف والقضبان وحارة الطيب ، أعتقد انه قد خطا بهذا العمل الاخير خطوة أخرى واسعة في طريق تطوره الفني الصاعد نحو الكمال .

القاهرة – **عبد المنعم عواد يوسف**

الادب المسؤول

تأليف رئيف خوري

منشورات دار الآداب – بيروت – ٢٤٠ ص

***

لم يشأ الحظ التعس أن تكتحل عينا فقيد الادب « رئيف خوري » بهذا الكتاب « الادب المسؤول » في حياته ، لانه كتاب جمعت مقالاته بعد وفاته ، وقام على جمعها وتنسيقها ونشرها دار الآداب ، في مائتين وأربعين صفحة ، وقدم لها الدكتور ميشال سليمان بكلمة ماتعة ، جامعة ، تفسر معالم الادب ومفاهيمه عند الفقيد رئيف خوري .

والكتاب ينطوي على أربعة أقسام :

القسم الاول : مباحث في ماهية الادب .

والقسم الثاني : من قضايا التوجيه في الادب .

والقسم الثالث : في أصول النقد .

والقسم الرابع : دراسات نقدية لبعض الآثار الحديثة .

على ان هذه الاقسام كلها – وان تفرعت المقالات فيها – فهي تكاد تجري في شوط واحد ، ينظمها مفهوم الادب ، في عصر تعددت فيه المفاهيم ، وذهبت أفانين وضروبا !

ومن الحق القول ان رئيف خوري كان معلما بارعا ، مؤثرا من معلمي الادب في جيلنا الحاضر ، وهو – وان غلبت عليه ظروف المعاش الثقيلة ، وجعلته سجين حرفة التعليم التي استبدت بأكثر جهوده –

فقد استرق من فراغه لحظات خاطفة ، مثيرة ، سجل فيها افكاره ومذهبه في الادب .

وهو - برغم تجديده ، وبالرغم من انه عاصر التطورات الادبية والفكرية الكبرى المتطرفة في عصرنا - فقد استطاع أن يخط له بينها منهجا واضحا لم يحد عنه ، يمثل اتجاهه الصحيح المعتدل الذي يتمسك بالتزامية الاديب ، وذاتيته معا ، في كل اتجاه أدبي ، مهما ذهب هذا الاتجاه .

وهو - كما أشار صاحب المقدمة - ذلك الشاعر الناقد ، والاديب البصير ، الشامخ الجبين ، المرهف الكبرياء ، الذي يرى الحياة لغزا في ضمير الناس .

وليس بمستنكر ان يجد - رئيف خوري - في الادب ، رسالة ينبغي لها أن تتحرر من الاشكال اللفظية ، والتهاويل البيانية التي تستعبدها ، وأن تذهب الى الغاية السامية التي تتمثل في جعلها « مهمة نضالية » وأن تجعل من القلم « مسؤولا اجتماعيا » حيث الادب انفتاح على الحياة ... الحياة المتحركة المتجددة دائما ، وحيث الاديب مسؤول اجتماعي يوجه الناس الى تغيير الحياة نحو الخير والجمال.

من هذا المنطلق تكونت عقيدة « رئيف خوري » الادبية !

التجديد والتغيير هما طبيعة الحياة ، ولذلك من الخطأ أن يتجمد الادب عند نقطة معينة ، لان في هذا التجمد موته وانقطاعه عن تيار الحياة الزاخر ! وأي مذهب - فني وأدبي أو فكري - من قديم العصور استطاع أن يقف محاولا تجميد الحياة ؟

الادب - عند رئيف خوري - رسالة اجتماعية ، وبناء متواصل في صرح الانسانية : بنقد المجتمع لانه يريده عدالة وحبا انسانيا ، وبنقد الدولة لانه يريدها اداة تسيير شؤون العامة ، لا الخاصة الممتازة . وبنقد الفكر لانه يريده فكرا علميا ، موضوعيا ، محوره الانسان ، وينقد الادب لانه يريده عمارات تشمخ على أسس من جمالية تعطي الناس والاشياء معنى بالنسبة الى الانسان .

وللوصول الى الاصلاح الاجتماعي لا يجعل المشاكل هي الغاية ، وانما هي الوسيلة الى خدمة الانسان . والانسان هو القيمة الاجتماعية العليا ، هو الغاية القصوى ، لا النظريات ولا الانظمة ، لان هذه تشتق قيمتها من الانسان ، وليس الانسان قيمته منها !

والادب اليوم اصبح اشد تفاعلا مع الشعب اخذا وعطاء ، واصبحت لعمل الاديب وشخصيته ، صفة اجتماعية لم تكن من قبل بمثل هذا القدر من الوضوح ، لا عند الاديب ، ولا عند الجمهور .

ومن هنا ، آمن رئيف خوري بان القلم مسؤول ، وان الادب مسؤول ، لان صاحب القلم بمجرد ما يكتب وينشر يفعل فعلا اجتماعيا ، وبذلك يصبح مسؤولا لدى نفوس غير نفسه ، يعبر عن المها وأملها ، وكدحها ونضالها .. مسؤولا لدى مجتمعه ، لدى شعبه ، قومه ، امته ، ولدى الانسانية بما يرتبط بالانسانية ! وغاية ذلك ان يوجه الناس الى تغيير الحياة ، التغيير الذي نحتمله ، والذي يكون ، في الآن نفسه ، جمالا وخيرا .

وهنا ، يصل رئيف خوري الى المفترق الدقيق في مفهوم توجيه الادب ، اذ يقول : « اني ادين بالادب الموجه ، الموجه ! واريد ان كل ادب انما هو بطبيعته ، موجه وموجه معا ، بوعي من الاديب ، او بغير وعي ... ان حرية الادب واستقلال الادب ، اذا ظن معناها خلو من التوجيه فانهما وهم فارغ ، وادعاء باطل . ليست الحرية لا مسؤولية . وليس الاستقلال لا مبالاة ، ولكني اصر اقوى اصرار على ان يكون هذا التوجيه بعقل ارادي اختياري . واني انكر اشد انكار ان يكون التوجيه للاديب بقسر واغراء او تلقين من الدولة والحزب الحاكم » .

ولا شك ان هذا الرأي هو الرأي الناضج الذي وعى الحقيقة ، وانطلق الى تأييدها ، بدون ان يتأثر الا بحقيقتها !

ولئن ردد الذين ذهبوا مذهب التعصب في توجيه الادب وجعلوا الادباء « مهندسي النفوس البشرية » فان هذا يصح على شرط الا يكون هؤلاء المهندسون قد هندس لهم سلفا كل شيء ..

ويجد رئيف خوري ايمانه واصراره بالا قيمة للاديب ان لم يكن موجها وموجها ، بقصد الاديب ووعيه ، مع بقاء الاديب حرا ، مختارا ، مستقلا .

ويرد رئيف خوري على تلك الفئة من الاجتماعيين والسياسيين الذين يتصورون ان الاديب ما دام له مذهب اجتماعي ، يجب عليه ان يدين بمذهبهم وسياستهم ، اذ في هذه الحالة يتحول التوجيه في الادب الى تلقين ، ويتحول الاديب الى شبه ببغاء ، عقله في اذنيه . والواقع الصحيح ان طبيعة الادب تقتضي التوجيه ، ولكنها لا تحتمل التلقين ، لا مادة ، ولا معنى . ولنا على ذلك امثلة وفيرة في آداب الامم التي غلبت على عقليتها وحريتها ، فجاء ادبها ترنيلا واحدا لاغنية واحدة ، أهم خصائصها التفاهة والعقم ! ولا شيء افسد للادب من التلقين والتقنين اللذين لا تبقى معهما للادب نكهة ولا لون ، ولا تبقى معهما للاديب شخصية !

ماذا يريد - رئيف خوري - بعد هذا العرض ان نفهم من مذهبه ؟

يريد ان نوفق بين الصفة الاجتماعية للادب ، والصفة الفردية في آن واحد ، والاديب في هذه الحالة مضطر الى ان يعيش حياة منفتحة على مجتمعه ووطنه وقومه وشعبه وعصره ... حياة تطلق فيها نوافذ نفسه للمؤثرات مما يحيط به ويحدث حوله ، ثم يشفع ذلك بحياة فيما بينه وبين نفسه ، فتكون له حياتان ، بينهما اخذ وعطاء على استمرار ... حياتان مدبجتان في حياة واحدة ، هي حياته الاجتماعية الفردية ... وبذلك يتوقى شر التلقين والتقنين .

وبعبارة اخرى : ان للادب عمرا اطول من عمر هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية ، ومحتوى الادب انساني . وقد تزول هذه المذاهب وتتحول تبعا لسنة التطور والارتقاء ، ولا يبقى منها الا محتواها الانساني ...

واي صفة نبيلة تبقى للاديب اذا تخلى عن رسالته التي تجعله سادنا للحرية في حرم العقل وهيكل الشعور ؟

والآن ، ما اجدرنا ان نختم هذه الكلمة بهذا الاستفهام الرائع ، المتوجع يرسله رئيف خوري : « اين ادبنا الذي لا يلغي القيم ، وانما يخلق القيم ؟ »

أين أدبنا الذي يؤكد مجد الانسان ، ويعفينا من هذه اللاشئية ، والمدارات المغلقة ، والطرق المسدودة ، والنار والرماد والوجوه السراب ؟ واين ادبنا الذي يلتزم ومع ذلك يتحرر من ترديد الاصداء ؟

رحم الله ذلك الاديب الذي سقط في ميدان الكفاح قبل أن يتم رسالته التي كان يتمنى اتمامها ! ولكن رسالته الواعية الى بقاء .. لانها لم تستمد عناصرها الا من الحقيقة ، والحقيقة باقية أبدا ؟

حلب **خليل الهنداوي**

قريبا

دار الآداب تقدم

عددا من مجموعات الشعر الجديد

الجوع والقمر

للشاعر محمد عفيفي مطر

●

حديقة الشتاء

للشاعر محمد ابراهيم ابو سنة

●

نخلة الله

للشاعر حسب الشيخ جعفر